



لم أكن أتصور أن هذه الكمّية من الإبداع والتّفاني موجودة لدى أبناء شعبنا. كنّا في السابق نراهن على مظاهره أو اثنين ولم نكن نحلم أن شعبنا قادر أن يصنع ثورة كاملة تدهش العالم بأسره من شجاعة هذا الشعب الأبي.

ولكن المقدّر لثورتنا أن تنطلق من الفن والجمال، من رسومات نقشها أطفال درعا على جدران مدارسهم. وهل أجمل من رسومات الأطفال وبراءتهم لتبدأ به ثورتك؟ وهل أسمى من باحات العلم التي دنسها البعث أن تضع هذا الفن فيه؟ أراد الأطفال أن يقطعوا بنا وأحلامنا أشواطاً طويلاً ما كنّا لنقطعها في سنوات لو بقينا على تخطيطات وتكلّمات الكبار.

أقف في كل يوم مشدوهاً أمام إبداع الشعب السوري الذي يرسم أبهى ألوان الثورة، والذي فجر طاقات ومواهب فريدة لم يكن أحد يتصور وجودها لدى شعب عانى القهر والحرمان لعقود. شعب بإبداع أفراده تجاوز نتاجه خلال الأشهر الماضية ما تنتجه كبرى الشركات والهيئات والمنظمات والدول.

الجميع يدرك أنه خلال العام الماضي قد خسر الكثير من ظنّهم أصدقاء من قبل ولكنه بالمقابل كسب أضعافهم من أصدقاء لم يعرف أسماءهم قبل ذلك، ولكنه رأى حبّهم وشغفهم بمستقبل أفضل له ولهم. الجميع يدرك أن ما مرّ كان مليئاً بالألم، ولكن في عيونهم جميعاً ترى الأمل الذي يدفعنا إلى المضي نحو الأمام.

كنا نقرأ أن متوسط القراءة لدى الشعوب العربية هي دقائق معدودة في السنة، ولكننا أصبحنا نرى أن السوريين أصبحوا يقرؤون بالساعات عن ماضيهم وعن حاضرهم، والبعض لم يكتف بقراءة التاريخ وإنما أصبح ممن يكتبونه بدمائهم ليرسموا أجمل صورة يمكن أن ترسم لثورة.

كنت أقرأ أن حركة التاريخ إنما يصنعها آلاف الجهود الصغيرة التي لا تلقي لها بالاً، ولكن لم أكن أتصور أن ثورة يمكن أن تقوم وتبني على ملايين الجهود، وذلك دون مبالغة، وأي شخص قريب من الثورة يعرف ما أعني.

كل مشهد من مشاهد ثورتنا تجمع جهود الآلاف ليكملاه، تستيقظ حرّة في الصباح لترى على باب منزلها منشوراً ودعوة قام بتصميمها شاب متّحّر للمساعدة، أوصلها من خاطر بمستقبله وتخفي عن العيون فستجيب وتخرج من منزلها وتقف إلى جانب حر آخر وصلته رسالة قام بإرسالها سوريون مغتربون إلى أرقام قام آخرون بجمعها وترتيبها، فيقف هذا الحر إلى جانب الفتاة مع أحرار آخرين جمع بينهم من سهر ليلته ينسّق ويقدّر ويدرس ويستطيع لجمع هؤلاء كي يهتفوا بحناجرهم يواجهون بصدورهم يتحدّون الظالم بعيونهم، يضحّون بأرواحهم، يحملون أعلام تعبر أنامل نسوة بحياكتهن، ولافتات تعبر أيادي الأطفال بكتابتها، وشعارات قام الشهداء بتأليفها ليزدّوّها بمكبرات تبرّع بها بعض المسنّون. يقف وراءهم شجاع يخفي ما يستطيع به نقل صوتهم، وتسجيّل صورتهم ليجتاز الحاجز وينذهب وينقل ما حصل عليه إلى شخص كرس وقته وما له لإيجاد طرق آمنة لإخراج ونقل هذه المعلومات لتقوم مجموعات أخرى بنشرها ليقوم غيرهم بترجمتها لتصل إلى بقاع العالم.

وإلى جانب كل هؤلاء نجد من يعمل على جمعها وأرشفتها ليعمل عليها حقوقيون وإعلاميون وسياسيون وكتاب ليجمع كل ذلك في تقرير يقرأه رئيس دولة عظمى فيجبر أن يخرج ليدعو الطاغية للتنحي فيظن بعض الحمقى أن الثورة بدأت من هنا. هذا المشهد تكرر يوم الجمعة الماضي في أكثر من 400 نقطة لـ **ليواجـهـ الأمـنـ والـجيـشـ المـتـظـاهـرـينـ**، فيطلق جندي النار عليهم فينشق زميله الواقف بجانبه وينضم إلى صفوف من يحمي المتظاهرين الذين يلهمون إخوانهم المغتربين لينسقوا مع فدائين لمساعدة صحفيين على التسلل إلى الداخل لنقل ما يحدث آخرون يمنتجون ويخرجون الأفلام الوثائقية، وغيرهم يكتبون ويحن ويغني أغاني الثورة ليأتي من يصنع منها فيديوهات تزيد من حماسة الناس لتخرج في مظاهرات من جديد يرمون فيها منشورات تدعى من لم يشاركهم التظاهر أن يشاركهم في إضراب دعا إليه شباب يعملون على دراسته ونقل مجرياته، آخرون يحللون تداعياته، واقتصاديون يحاولون إيجاد صيغة مناسبة تساعد الناس على تحمله لإضعاف النظام حتى يخفف قبضته ليعود الأحرار من جديد للتظاهر.

هو دولاب يدور، وهي كرة ثلج تكبر في كل دورة وما زال البعض يظنون واهمين أنهم قادرـونـ عـلـىـ إـيقـافـهاـ. صدقوني لا أبالغ عندما أقول ملايين الجهود وفي كل مشهد ترونه تذكروا دورة الحياة الكاملة له. الثورة تمضي والركب يسير فلا تفوّتوا الالتحاق بهم، فقد خطّ الكثير من أبناء البلد ما يستطيعوا أن يرووه لأنـاـنـهـمـ ويقدمـهـمـ أمامـ ضـمـيرـهـمـ وـيـرـضـوـاـ بـهـ ربـهـمـ. ولكنـ هذهـ العـجلـةـ تـأـبـيـ إـلـاـ أنـ تـحـويـ كـلـ مـقـومـاتـ الـجمـالـ، الجـمالـ مـوـجـدـ فـيـ هـتـافـاتـ الـمـتـظـاهـرـينـ، وـفـيـ نـهـافـاتـ الـثـائـرـينـ، وـفـيـ ضـحـكـاتـ الشـهـداءـ، وـفـيـ أـغـانـيـ الـثـورـةـ وـكـتـابـاتـهـاـ، وـفـيـ مـنـشـورـاتـهـاـ وـفـيـ يـوـمـيـاتـهـاـ. كـلـهـ مـصـنـوعـ بـإـتقـانـ، وـكـلـهـ مـلـيـءـ بـالـجـمالـ الـذـيـ كـدـنـاـ نـنـسـاهـ فـيـ إـعـلامـنـاـ الرـسـميـ وـفـيـ صـحـفـنـاـ الـمـمـلـةـ، وـفـيـ إـعـلـانـاتـنـاـ الـجـاـفـةـ، وـفـيـ كـتـبـنـاـ الـمـكـتـوـبـةـ خـارـجـ نـطـاقـ الزـمـانـ، وـلـكـنـ الثـورـةـ أـتـتـ لـتـعـيـدـ الـجـمـالـ.

علـمـتـناـ هـذـهـ الـثـورـةـ أـنـ الـمـسـتـحـيلـ لـاـ وـجـودـ لـهـ، وـأـنـ مـنـ يـحـلمـ بـشـيءـ يـسـتـطـيعـ الـوصـولـ لـهـ، وـلـاـ أـنـسـيـ مـشـاعـرـنـاـ فـيـ شـهـرـ شـبـاطـ الـفـائـتـ، وـكـيـفـ بـدـأـ إـلـهـبـاطـ وـالـيـأسـ يـتـسـلـلـ إـلـيـنـاـ وـنـحـنـ نـرـىـ الـشـعـوبـ الـعـرـبـيـةـ اـنـتـفـضـتـ عـلـىـ وـاقـعـهـاـ، وـبـدـأـنـ نـخـشـيـ أـنـ يـفـوتـنـاـ قـطـارـ الـحـرـيـةـ حـقـاـ.

أحرارنا عندما ذهبوا للتضامن مع شعب مصر ولبيبا أمام سفاراتهم في دمشق كانوا يدركون أننا نحن من نحتاج هذه الوقفة وليس شعوب مصر ولبيبا، ولكنـهاـ كانتـ الطـرـيـقةـ الـوحـيدـ لـإـشـعالـ الشـرـارةـ. يستغلـونـ أيـ حدـثـ لـتـجـمـيـعـ النـاسـ وـتـأـلـيـبـهـمـ؛ فـمـنـ قـصـةـ خـطـفـ الطـفـلـ هـاـيـ، إـلـىـ قـصـةـ تـقـاعـسـ الـخـطـوـطـ السـوـرـيـةـ عـنـ إـجـلـاءـ الـجـالـيـةـ فـيـ لـيـبـيـاـ، إـلـىـ قـضـيـةـ الـحـرـيـقةـ وـالـشـرـطـيـ الـذـيـ صـفـعـ شـابـاـ هـنـاـ. سـقـفـ الـأـحـلـامـ كـادـ أـنـ يـبـدـأـ النـاسـ بـالـكـلـامـ. لـأـنـسـيـ عـنـدـمـاـ بـعـثـ لـيـ أـحـدـ الـأـصـدـقـاءـ الـمـتـحـرـقـينـ فـيـ شـبـاطـ يـسـأـلـيـ أـنـ أـشـارـكـهـ صـفـحةـ أـرـادـ تـسـمـيـتـهـاـ نـعـمـ لـبـشـارـ الـقـائـدـ وـلـاـ لـلـنـظـامـ الـفـاسـدـ، عـلـهـاـ تـكـوـنـ الـخـطـوـةـ الـأـوـلـىـ لـتـحـرـيـكـ النـاسـ، خـطـوةـ عـلـىـ بـسـاطـتـهـاـ كـانـ مـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ تـوـدـيـ بـحـيـةـ صـاحـبـهـاـ فـيـ ذـلـكـ الـزـمـانـ قـبـلـ أـنـ يـزـورـنـاـ الـرـبـيعـ. وـلـكـنـهاـ كـانـ خـطـوةـ تـبـعـهـاـ خـطـواتـ قـامـ بـهـاـ مـلـاـيـنـ السـوـرـيـينـ.

إـذـاـ كـنـتـ حـتـىـ هـذـهـ اللـحـظـةـ لـمـ تـخـطـ خـطـوـتـكـ، وـوـقـفـتـ مـتـفـرـجـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـثـورـةـ، وـلـمـ تـزـدـ عـلـيـهـ شـيـئـاـ؛ فـأـدـعـوكـ لـلـتـحـرـكـ، فـقـطـ الـثـمـارـ اـقـتـرـبـ، وـأـجـلـ الـظـالـمـينـ قـدـ حـانـ، وـلـاـ تـقـلـ أـنـكـ تـرـيـدـ الـمـسـاعـدـةـ، وـلـكـنـ لـاـ تـعـرـفـ الـطـرـيـقـ، فـالـشـهـداءـ قـدـ رـسـمـوـاـ بـدـمـائـهـمـ شـاـخـصـاتـ فـيـ كـلـ مـكـانـ تـدـلـ عـلـىـ الـحـرـيـةـ وـتـشـيرـ إـلـيـهـاـ، وـمـاـ عـلـيـكـ إـلـاـ تـبـعـهـاـ؛ تـظـاهـرـ، صـوـرـ، نـسـقـ، وـتـقـ، اـنـشـرـ، تـبـرـ، تـرـجـ، صـمـمـ، سـجـلـ، اـرـسـمـ، فـكـرـ، شـارـكـ، خـطـطـ، اـدـعـ، حـفـزـ، مـثـلـ، غـنـيـ، اـكـتبـ.

جلـستـ لأـكـتبـ عـبـارـةـ عـنـ آخرـ الـعـامـ وـلـكـنـ مـرـتـ أـمـامـ عـيـنـيـ آـلـافـ الـمـشـاهـدـ وـالـذـكـرـيـاتـ وـلـمـ أـعـرـفـ مـاـذاـ أـسـجـلـ! فـوـجـدـتـ نـفـسيـ أـكـتبـ عـنـ جـمـالـ هـذـهـ الـثـورـةـ، لـأـعـرـفـ هـلـ أـكـتبـ عـنـ صـدـيقـتـيـ الـتـيـ دـخـلـتـ تـجـرـ أـخـتـهـاـ الـتـيـ كـانـتـ تـبـكـيـ وـرـاءـهـاـ وـتـسـأـلـيـ أـنـ أـطـلـبـ مـنـهـاـ أـلـاـ تـذـهـبـ إـلـىـ الـمـظـاهـرـ خـوـفـاـ عـلـيـهـاـ، فـنـظـرـتـ فـيـ عـيـنـ الـأـوـلـىـ فـوـجـدـتـ رـغـبـةـ بـالـتـظـاهـرـ، وـنـظـرـتـ فـيـ عـيـنـ الـثـانـيـةـ فـوـجـدـتـ رـغـبـةـ أـكـبـرـ بـالـتـظـاهـرـ، فـلـمـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـطـلـبـ مـنـهـاـ عـدـمـ الـذـهـابـ. أـمـ أـكـتبـ عـنـ تـلـكـ الـفـتـاةـ الـتـيـ سـأـلـتـهـاـ كـيـفـ تـوـقـقـ بـيـنـ

عملها وكل هذا الجهد الذي تقدمه للثورة؟ فأجابتنـي: أنها استقالـت من عملها منذ أشهـر وهي متفرـغة تعمل أكثر من 10 ساعات يومياً للثورة، لاكتـشف لاحقاً أن كـثيرات مـثلها. أم عن ذلك الأب الذي أشار لي أن أدخل سيارـته فـدخلتها فإذا به يـنتظر ابنـه أمام المـظاهرـة حتى إذا دـخل ابنـه بـوجهـه المـدمـى إلى السيـارة نـهرـه والـدـه أنه أسرـع بالـهـربـ، وكان عليهـ أن يـناورـ الشـبيـحةـ ويـضـربـهمـ قبلـ أنـ يـهـربـ. أم أحـدـثـكمـ عنـ تلكـ الفتـاةـ التيـ تتـتـبعـ أخـبارـ المـظـاهـراتـ لـتـقـفـ هـنـاكـ وـتـحـاولـ إنـقـاذـ أيـ شـابـ منـ قـبـضةـ الشـبـيـحةـ بـحـجـةـ أنهـ أخـوهـاـ وـهـيـ تـعـرـفـ أنـ مـصـيرـهاـ قدـ يـكـونـ أنـ تـعـقـلـ معـهـ. أم عنـ ذلكـ الأبـ الذيـ كانـ يـطـلـبـ منـ ابنـهـ فيـ كـلـ جـمـعـةـ عدمـ الـذهـابـ إـلـىـ المسـجـدـ الـذـيـ تـخـرـجـ مـنـهـ المـظـاهـرـةـ، وـعـنـدـمـاـ خـالـفـهـ ابنـهـ وـذـهـبـ دونـ عـلـمـهـ وـجـدـ والـدـهـ هـنـاكـ يـتـظـاهـرـ. أم عنـ تلكـ الأمـ التيـ رـأـتـ أـبـنـاءـهـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ الـاعـتـقـالـ وـاحـدـاـ تـلـوـ الـآـخـرـ وـهـيـ تـقـولـ: إـنـ هـذـهـ ضـرـبـيـةـ يـجـبـ عـلـيـنـاـ جـمـيـعاـ أـنـ نـدـفـعـهـاـ. وـمـثـلـ تـلـكـ القـصـصـ مـئـاتـ عـاـيـشـهـاـ كـلـ وـاحـدـ مـنـاـ وـانـطـبـعـتـ ذـكـرـيـاتـهـاـ بـمـخـيلـتـنـاـ وـسـتـبـقـيـ ماـ حـيـنـاـ، قـدـرـ لـبعـضـهـاـ أـنـ يـنـتـشـرـ بـيـنـماـ بـقـيـ الكـثـيرـ مـنـهـاـ فـيـ صـدـورـ أـصـحـابـهـاـ.

الثـورـةـ تـحـتـاجـكـ، وـهـنـاكـ آـلـافـ الـطـرـقـ الـتـيـ تـسـتـطـعـ المـشـارـكـةـ بـهـاـ...ـ فـقـطـ شـارـكـ...ـ وـتـذـكـرـ أـنـ ثـورـتـنـاـ...ـ فـائـقـةـ الجـمالـ.

المـصـدرـ: مـدـادـيـ لـبـلـادـيـ

المـصـادرـ: